العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الاول ١٣٢هـ-٣٣٤هـ

ان اهم ما يميز المواجهة العباسية ضد الروم البيزنطيين انها لم تكن حرباً مخططة تهدف الى توسيع رقعة الدولة الاسلامية بل انها انخفضت في مستواها الى اشتباكات بطيئة على الحدود تتخللها هجمات تتفاوت عمقها داخل حدود الدولة المعادية على ان حصيلتها لم يكن اكثر من التهديد وارهاب العدو وتدمير الحصون والمعسكرات الثغرية ، ولعل هذا الاختلاف في المجهود الحربي تجاه الروم بين الدولتين العباسية والاموية يعود الى ان العباسيين اهتموا بالأقاليم الشرقية . من دولتهم اكثر من اهتمامهم بالأقاليم الغربية ويعود السبب في ذلك الى ادراكهم بان ضمان الاستقرار في المشرق يعني ضمان السلطة لهم وللأمن في العراق ولذلك بذلوا جهودا لا باس بها في تثبيت مراكزهم هناك بنقل العاصمة الى العراق ليكون على مقربة من ايران المضطربة وبالقضاء على كل حركة فيها كما يبدوا ان المقاتل العربي المسلم قد استنفذ كافة قدراته القتالية مع مجيء العباسيين ، وبناءاً على ذلك غدت سياسة الخلافة العباسية دفاعية وليست هجومية في الاعم الاغلب .

وقد ظلت امبراطورية الروم العدو الرئيسي للدولة الاسلامية منذ نشأتها ذلك لان الروم خسروا عدة اقاليم غنية كانت داخل امبراطوريتهم بعد الفتوحات الاسلامية التي حررت الشام ومصر ، والمعروف ان الامبراطورية البيزنطي قسطنيطنين الخامس هاجم منطقة الثغور منتهزاً فترة الاضطرابات في السنوات الاولى من عمر الدولة العباسية وهدد كل الثغور الاسلامية فدمر حصونها وخاصة حصون الفرات وحصون المنطقة الوسطى (الجزرية) مثل الحدث وزبطرة وملطيه .

فقد حاصر الامبراطور ملطية واستسلم اهلها بعد ان يأسوا من المدد وقد اشترط عليهم اخلاء القلعة كما ضربت سميساط وكمخ وهدم حصن قلوذيه وكان ذلك في سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م – ٧٥١م .

ولقد امر الخليفة العباسي الاول ابو العباس عمه وواليه على الشام عبد الله بن علي بالتحرك فوراً يمن معه من الخراسانية واهل الشام لجهاد الروم وازاحتهم ، على ان عبد الله بن علي كان يطمح بالخلافة ويعتبر نفسه الرجل الثاني بعد الخليفة ، ولذلك فقد كان اهتمامه منصباً على مصير الخلافة مصير الثغور الاسلامية ، وكان متثاقلاً في سيرة الى الحدود ولذلك فلم يكن قد قطع شوطاً بعيدا حين جاء نبأ وفاة الخليفة فغير اتجاهه جنوباً نحو العراق مدعياً بالخلافة .

وحين جاء الخليفة الثاني المنصور الى الحكم (١٣٦–١٥٨هـ) اهتم بمنطقة الحدود على ان جل عمله كان دفاعياً لا هجومياً ذلك لأنه اعاد تحصين المنطقة التي دمرها قسطنطين الخامس وبنى كثيرة من الحصون التي هدمت ولاشك في ان المنصور نفسه كان ملماً بأحوال المنطقة لأنه كان والياً على الجزيرة وارمينية واذربيجان في عهد اخيه الخليفة الاول .

وقد بذل المنصور جهود وامكانات بشرية وماليه كبيرة انفقها من اجل ان يضع اساساً جديداً لإقليم الثغور ، فقد حصن الخليفة المنصور هذه الثغور واعاد بنائها وجعل لها حكماً ادارياً مستقلاً وحشد فيها الاف المقاتلين والمرابطين في سبيل الله ومنحهم الاقطاعات والمزارع لأجل ان يستقروا فيها ، ووزع عليهم الاموال ونظم حملات الصوافي والشواتي وكانت هذه الحملات تنظم سنويا براً وبحراً .

ان هذه الاجراءات كانت ضرورية وملحة ولها اهمية كبيرة اذ يستطيع المرابطون في هذه الثغور استغلال الاراضي الموزعة عليهم لغرض الزراعة في ايام السلم وبالتالي يرتبط المقاتل بالأرض ، ويدافع عنها بشكل افضل لان معاشه منها ومعاش عائلته ، يضاف الى ذلك ان المقاتل يدافع عن عائلته ايضاً لان قسماً كبيراً من هؤلاء الجنود في الثغور قد نقلوا عوائلهم الى هذه المناطق .

لقد تمت مرحلة استكمال الدفاع والتحصينات بين عام ١٣٨هـ–١٤١هـ ولكن المنصور لم ينتظر كل هذه المدة دون مواجهة الروم فقد ارسل حملة بقيادة العباسي

بن محمد على راس اهل خراسان وصالح بن علي على اهل الشام سنة ١٣٨هـ وهذه الغزوة كانت اول غزوة في العصر العباسي ، وان اهم ما حققته حملة ١٣٨هـ-١٣٩هـ هو اعادة بناء الحصون الثغرية اولا وتحذيراً الروم من مغبة هجماتهم المدمرة ثانياً ثم الفداء واستنقاذ اسرى المسلمين من ايدي الروم حيث جرت اول عملية فداء بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية سنة ١٣٩هـ .

ويظهر انه لم يعقب حملة ١٣٨هـ غزوة حقيقية جديدة حتى ١٤٦هـ وذلك لتعرض الدولة العباسية الى حركة علوية كادت تؤدي بكيانها الا وهي حركة محمد النفس الزكية واخيه ابراهيم .

وقد يعزى الهدوء على الحدود الاسلامية الرومية الى عدة عوامل منها : -

اولاً : الاضطرابات الداخلية في الدولة الاسلامية حيث كان عهد المنصور كثير القلاقل هددته اخطار ثلاثة هي : خطر عبد الله بن علي العباسي وخطر ابي مسلم الخراساني واتباعه وخطر الشيعة العلوية .

ثانياً :- انشغال الروم انفسهم بمشاكل داخلية حيث تنازعت الحكم تكتلات سياسية وعسكرية ولعل جذور هذا الانشقاق يعود الى حركة دينية تراسها الامبراطور ليو الثالث الذي اتخذ اجراءات مشددة ضد عبادة الايقونات في الامبراطورية وهي عبادة الصور المقدسة والتماثيل التي تصور المسيح والعذراء القديسين وعرفت هذه الحركة بالحركة اللايقونية اي حركة اصلاح الدين بتطهيره من الماديات ورفض عبادة الصور والتماثيل المقدسة وقد تطورت الحركة من دينية الى دينية سياسية وادت الى عداء بين الامبراطور والبابا ، ومع ذلك فقد استمر الأباطرة البيزنطيون في سياستهم فقد سار قسطنطين الخامس على نفس سياسة والده بإصداره مراسيم جديدة ضد الصور والتماثيل ، وتبعه في ذلك ليو الرابع.

ولم تكن الفترة بين ١٤٦-١٥٨هـ اي الى نهاية حكم المنصور فترة فعالة او هجومية الا في النادر حيث ان الحملات لم تكن تتوغل بعمق او تلاقي قوة بيزنطية حقيقية ، ولعل اشتباك حدث بين الطرفين كان في ١٥٣هـ حين سار معيوف بن يحيى الحجوري الى حصن الروم ليلاً واهله نيام فسبى واسر من كان فيه من المقاتلة ثم

سار الى اللاذقية المحترقة ففتحها واخرج منها ستة الاف رأس من السبي سوى الرجال البالغين .

ولقد توفي الخليفة المنصور في نفس السنة التي توفي فيها الامبراطور قسطنطين الخامس وخلف المنصور ابنه المهدي بينما خلف قسطنطين ابنه ليو الرابع وقد استمر ليو الرابع في سياسة اللا ايقونية واضطهد الكثير من ابناء الشعب حتى شمل اضطهاده زوجته ايريني وقد خلفه في الحكم ابن قسطنطين السادس الذي كان لا يزال طفلا صغيراً تحت وصاية ام ايرايني التي اشتهرت بصفات فذه وطموح ليس له حدود لا يوازيه الا طموح معاصرتها الخيزران زوجة الخليفة المهدي وام الهادي والرشيد ، لم ترغب ايريني التنازل عن العرش لابنها قسطنطين الذي بلغ سن الرشد ، كما ان قسطنطين نفسه وقف موقفاً بشأنه موقف الهادي من امه حيث اراد ان يحد من سلطاتها وهيمنتها على الدولة ، وقد اجبرت ايريني على اعلان ابنها امبراطور بعد عصيان الجند عليها وفشلها في صد غارات المسلمين على الحدود ، ولكن الامبراطورة الطموحة ذات الاطماع الواسعة انتهزت اول فرصة مواتية وقبضت على ابنها وسملت عينيه واعلنت نفسها امبراطورة مرة ثانية ، وان عمل ايريني هذا مهد الطريق لزوال حكمها حيث بدأت سلسلة من المؤامرات حاكها رجال البلاط وقادة الجيش حتى استطاع فقفو القضاء على نفوذها ونفيها .

ان اهم ما يميز عهد المهدي بالنسبة لعلاقته بالروم هو تصاعد العمليات الحربية حيث لم تمر سنة الا وتكون هناك صائفة او شاتية ولعل السبب في ذلك يعود الى:-

١- تأكيد الخليفة على الصبغة الدينية للخلافة واهم ما يعمق هذه الصفة هو الجهاد في سبيل الله وارسال البعوث ضد الروم في محاولة لتوسيع رقعة الاسلام .

٢- اظهار الخليفة لدوره كمهدي منتظر لهذه الامة ببعثه لروح الجهاد وتذكير الناس بأنه وهو المهدي الذي سيعيد للدولة سيرتها الاولى وينتصر على اهل الكفر .

٣- ان عهد المهدي كان عهد استقرار وامن نسبين بعد ان وطد المنصور دعائم الدولة وقضى على الاخطار الرئيسية ولقد اوصى المنصور ابنه المهدي بجهاد الروم . وفعلا اخذ المهدي زمام المبادرة في الحرب ، وكانت اول حملة في سنة ١٥٩هـ بقيادة العباس بن محمد وعلى مقدمته الحسن الوصيف وكان هدف الحملة على ما يظهر الرد على هجوم قام به ليو الرابع الذي ضرب سميساط واخذ بعض الاسرى .

وقد وصلت الحملة الى انقرة دون ان تحاصرها او تحاول فتحها ، وقد اسكن المهدي في هذه السنة ٢٠٠٠ جندي في حصن المصيصة كما وانه بدأ ببناء كفر بابا وفي سنة ١٦٠هـ وسنة ١٦١هـ كان هناك صائفتان على التوالي على ان الروم هجموا هجوماً مفاجئاً بجيش كثيف قدر بحوالي ٨٠٠٠٠ مقاتل او اكثر بقيادة القائد ميخائيل الذي استطاع ان يصل الى مرعش على طريق درب الحدث وبعد ان حصرها لم يستطع فتحها ولما سمع المهدي نبأ الهجوم البيزنطي ارسل لتوه القائد الحسن بن قحطبه الطائي مع مقاتله عراقيين وحجازيين ، والظاهر ان حملة الحسن بن قحطبة كانت انتقامية لما قام به ميخائيل ولعل ما قام به لم يكن اكثر من التخريب دون ان يضم مناطق جديدة الى الدولة .

وشهدت سنة ١٦٢هـ عدة حملات اسلامية ضد الروم فقد كانت الحملة الاولى بقيادة ثمامة بن الوليد الا انه عزل عن القيادة التي تولاها الحسن بن قحطبة ، وقد سار الحسن بجيش قدر بحوالي ٨٠٠٠٠ من المقاتلة وتعمق في داخل اراضي الامبراطورية حتى عمورية الا انه لم يفتحها لحصانتها ، وقد استطاع الجيش البيزنطي ان يقطع المؤون عن جيش الحسن من الخلف مما اضطره على التراجع ، ولم تحقق حملة الحسن انتصاراً حربياً الا انه اعاد بناء حصن طرسوس والحدث الذي اراد المهدي ان يغير اسم الى المهدي او الحمدية ، اما الحملة الثانية في هذه السنة ، فقد كانت بقيادة يزيد بن اسد السلمي الذي قاد حملته الى تاليقالا مخربا بعض الحصون غانما بعض الاسرى ، على ان محاولاته لاحتلال بعض المدن البيزنطية باءت بالفشل فاضطر الى العودة .

والجدير بالذكر ان حملتين خلال هذه الفترة المبكرة من العصر العباسي يذكرها المؤرخون بشيء من التفصيل والاعجاب هما حملتي سنة ١٦٣هـ و ١٦٥هـ .
خاصة اذ علمنا بان هارون بن المهدي كان قد عين امير للحملة وهو لا يزال في بداية شبابه يساعده في ذلك البرامكة والربيع بن يونس وقد استقبل هارون بمظاهر العظمة والتهليل بعد رجوعة من الحملة واعطى لقب الرشيد كما وعين ولياً للعهد بعد اخيه موسى الهادي .
اما عن تفاصيل الحملة فقد سار المهدي على راس جيش كبير ، اشرف على اعداده بنفسه ، وصحب المهدي في هذه الحملة ابنه هارون الذي اصبح اميراً للجيش كما ذكرنا في هذه الحملة ١٦٣هـ ، واناب الخليفة المهدي ابنه موسى الهادي في بغداد ، وقد رافق هذه الحملة العسكرية الحسن بن قحطبه والربيع بن يونس وسار المهدي مع الجيش الى الموصل ، ثم اتجه الى حلب حيث قتل بعض الزنادقة فيها ثم رجع الى بغداد تاركاً قيادة الجيش الى هارون الرشيد .
واثناء توجه الرشيد صوب بلاد الروم توفي ليون فحكمت زوجته ايرين وصية على ابنها الصغير قسطنطين السادس فتوغل هارون الرشيد في بلاد الروم وتوجه صوب حصن سمالو وحاصره ٣٨ ليلة حتى فتحه ثم فتح مدينة طرسوس وحصنوها نظراً لأهميتها العسكرية وموقعها الاستراتيجي المهم في الحرب ضد البيزنطيين .
اما صائفة عام ١٦٤هـ فقد اسندت قيادتها الى عبد الكبير ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، الان ان الجيش البيزنطي انتصر عليه فعنف الخليفة المهدي وهم بإعدامه لولا توسط رجال البلاط وثم حبسه .
ثم اعد المهدي ١٦٥هـ جيشاً كبيراً جداً قيل ان تعداده جاوز ٩٥.٠٠٠ مقاتل واسند قيادته الى ابنه هارون ، ففتح عدداً من الحصون مثل حصن ماجده وتقدم حتى وصل مضيق البسفور واضطرت الإمبراطورة ايرين الى طلب الصلح لأنها كانت تمر بظروف داخلية صعبة جداً داخل الدولة فأجابها هارون الرشيد وتم توقيع الهدنة بين الطرفين التي نصت على ما يأتي :-

١- عقد هدنة لمدة خمس سنوات .
٢- التعهد بدفع جزيه سنوية مقدارها بين ٧٠-٩٠ الف دينار .

٣- تجهيز الجيش الاسلامي بالأدلاء .

٤- تسهيل مهمة تموين الجيش اثناء رجوعه .

وتدل بعض الروايات ان الجيش الاسلامي رغم وصوله الى القسطنطينة فقد كان في وضع حرج حيث انهكته المسافة ووعورة المسالك وقلة المؤونة وكان لابد من الصلح اذا اريد لهذا الجيش ان يعود سالماً الى الديار الاسلامية .

وفي طريق العودة قام هارون الرشيد بتحصين المصيصة وزاد في حاميها العسكرية المسلمون غنائم كثيرة في هذه الحملة .

ولقد كانت السنتان اللتان تليتا الصلح خاليتين من الغزوات ١٦٦هـ و ١٦٧هـ .

ام عن الحملات البحرية ، فلم تكن مثلما كانت عليه الحال في عهد الدولة الاموية اذ ان الدولة العباسية كما يقال لم تكن دولة بحرية ، فلم تهتم بالأسطول ذلك الاهتمام الذي كان عليه الحال في عهد الدولة الاموية ، مما اعطى الاسطول البيزنطي فرصة فاخذ يهاجم سواحل مصر وافريقياً وغيرها من المناطق .

ومهما يكن امر فان التاريخ يسجل للعباسيين الاوائل عنايتهم بتحصين الموانئ الشامية والمصرية ولكنهم نظر واليها لا كقواعد هجومية بل كحدود لدولتهم لدولتهم ينبغي حمايتها والدفاع عنها وتسجل الروايات بعض الغزوات البحرية العباسية وهي:-

١- في سنة ١٥٦هـ توجهت حملة بحرية واستطاعت ان تأسر حاكما .

٢- وفي عهد المنصور ايضاً قاد ثمامة بن وقاص حملة سنة ١٥٧هـ على سواحل الروم (شواطئ اسيا الصغرى) ولكن السفن البحرية البيزنطية استطاعت قطع الاتصال بين الجيش الاسلامي البري وبين اسطوله ولكن تعاون الجيش والبحرية الاسلامية مكن لثمامة من ان ينجو من الحصار وينسحب الى داخل حدود الدولة العباسية البحرية .

٣- وفي عهد المهدي قام الغمر بن العباس الخشعمي بغزو جزر بحر الشام في سنتين متتاليتين سنة ١٦٠هـ - ١٦١هـ .

المصادر والمراجع

١-ابن الاثير ، الكامل في التاريخ

٢-ابن كثير ، البداية والنهاية

٣-الطبري ، تاريخ الرسل والملوك

٤-ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك

٥-ابن خلكان ، وفيات الاعيان

٦-اليعقوبي ن تاريخ اليعقوبي

٧-ابن خياط ، تاريخ خليفه بن خياط

٨-ابن قتيبة ، عيون الاخبار

٩-ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر

١٠-ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني

١١-حاجي خليفه، كشف الظنون في معرفة الاسامي والفنون

١٢-الذهبي ، تاريخ الاسلام

١٣-السيوطي ، تاريخ الخلفاء

١٤-المسعودي ، مروج الذهبي

١٥-المقريزي ،كتاب السلوك

١٦-القلقشندي، صبح الاعشى

١٧-ولهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها

١٨-ادم متز ، الحضارة الاسلامية

١٩-شاكر مصطفى التاريخ العباسي

٢٠-فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية

٢١-بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية

٢٢-بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية

٢٣-حسن ابراهيم حسن ،تاريخ الاسلام

٢٤- البغدادي ، تاريخ بغداد

٢٥-عبد العزيز الدوري ،العصر العباسي الاول